٣ – حماية الإسلام والدفاع عنه :

وهذا هو الواجب الثالث من واجبات الجنود ، وهو لا يقل أهمية عن سابقيه ، ولقد كانت تربية الجنود على الواجبين السابقين والاهتمام بهما ، والتأكد من حرصهم على إخلاص ولائهم لقيادتهم والتزامهم بأوامرها ، كان ذلك كله تمهيدا للقيام بهذا الواجب العظيم .

إن الإسلام لم ينشىء جيشا رغبة فى الحرب وحبا للسيطرة على الغير وإلا لما قال الله – تعالى – لقائد الجيش ﷺ : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ﴾[١] .

والإسلام لم يدخل المعارك التى خاضها طمعا فى استعباد الناس وقهرهم لسلطانه ، وإلا لما أعلن دستوره الخالد ذلك المبدأ الذى يقرر حرية الأديان ﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ﴾[٢] .

وإنما شرع الإسلام الجهاد ، واهتم بأمر الجيش ، ورباه تلك التربية الروحية والعقلية والجسمية كما أسلفنا[٣] ليكون الدرع الواقى والسلاح الرهيب والقوة المانعة الذابة عن حمى الإسلام والرادعة لمن يعاديه ويقف فى طريقه .

إن الذين يسالمون المسلمين ، ولا يعوقون سير الدعوة إليه ، ولا يناصرون عليه عدوا أولئك لهم الأمن وإن لم يدخلوا فى الإسلام ، أما الذين يناصبونهم العداء ، ويعرقلون مسيرة الدعاة إلى الله ويعضدون أعداء الإسلام ، فأولئك يعرضون أنفسهم لنقمة الجيش الذى وهب نفسه وحياته لإعلاء كلمة الله .

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٦١ .
(٢) سورة البقرة : الآية ٢٥٦ .
(٣) يراجع القسم الأول من هذا الكتاب .

لم يكن هذا الجهد المبذول فى تربية الجيش ، ولا هذا الحسم والمفاصلة فى تحديد هذه المعانى وضبطها عبثا يفسره كل إنسان حسب هواه ، ولا لهوا يتسلى به المتطعون فى أوقات فراغهم ، بل كان تحديد الإسلام لمعنى الولاء ، وتمحيص الإخلاص بحزم للقيادة المؤمنة الرشيدة ، وكان رفضه الشركة فى الولاء مهما كان الشريك ، وكذلك كان تركيز معنى الالتزام فى نفوس الجنود ، وتربيتهم على احترام الأوامر الصادرة إليهم ، وعدم قبول التردد فيها ، كان ذلك كله إعداداً للجنود للقيام بمهمة عزيزة وتوجيها لهم إلى غاية سامية كل السمو ، تلك هى حماية الإسلام والدفاع عن رسالة السماء .

إن حماية الإسلام والدفاع عنه غاية مطلوبة من كل مسلم فالذين يقفون متفرجين والإسلام يصرع بأية صورة من الصور ليسوا بمسلمين ، والذين يحوقلون ويتوجعون والإسلام يمتحن وهم قادرون على إنقاذه ولا يفعلون ليسوا من الإسلام فى شىء مهما زعموا أنهم مسلمون .

وأدهى من هؤلاء وأولئك الذين يشجعون الظلمة على انتهاك حرمات الإسلام والفتك بالمسلمين ، ولا ينفكون عن الهتاف والتصفيق للطغاة المجرمين ، ويحلفون بعد ذلك أنهم مسلمون ، ويحلفون على الكذب وهم يعلمون .

لقد كان الإسلام عزيزا بعزة المسلمين ، منيعا لايرام بقوتهم ، لم يستطع أحد أن يقهره أو يفكر فى الدخول معه فى معركة ، حيث كانت النتيجة معروفة مسبقا ، ولما حاول الصليبيون ومن والاهم تجربة حظهم معه لم يهنئوا بنصر ، ولم يستقروا فى بلد من بلاده ، ولم تعرف راحة البال إلى قلوبهم سبيلا ، بل كانوا يخرجون من معركة ليقاسوا أشد منها هولا وفزعا ، وكانوا يلتقطون أنفاسهم فى مكان ليستعدوا للهث والبهر فى مكان آخر .

تلك كانت حالة أعداء الإسلام حينما كان المسلمون معتصمين بحبل الله ، كلمتهم سواء ، وجيشهم قوى ، وسلطانهم واحد ، فكيف استطاع أعداء الإسلام بعد ذلك النيل منهم ؟؟

ذلك هو السؤال الذى يجب أن نتمعن فيه ، ونوليه كثيرا من العناية والاهتمام . لأننا إذا عرفنا الوسائل التى تمكن بها أعداؤنا من النيل منا تلافيناها ووضعنا لها العلاج الناجع للتغلب عليها .

والحقيقة أن أعداء الإسلام لم يستطيعوا أن يحققوا التغلب على المسلمين بقوتهم العسكرية لأن وجود قوات احتلال فى بلاد المسلمين يثير عواطفهم ويؤجج غيظهم ، ريفجر منابع القوة فى نفوسهم، وقد لمس الأعداء ذلك بأنفسهم فلجئوا إلى أنواع شتى من الحروب الباردة التى لا يستعمل فيها البارود ، ولا يسمع فيها أزيز الطائرات ولا فرقعة القنابل ولكنها حروب هينة لينة تصيب من الإنسان مقتلا دون أن يشعر هو ولا من حوله بذلك ، وينتكس فيها الإنسان فيصبح غريب اللسان غريب العقل ، غريب القلب يحب أعداءه ويبغض أحباءه .

وتلك هى أخطر ما عرفت البشرية من أنواع الحروب ، لأنها تقتل الإنسان وهو حى بين الناس يمشى ويأكل ويشرب ، وتلك هى مظاهر الحياة عند البسطاء ، نعم ، إنه يأكل ويشرب ويمشى كما يأكل ويشرب ويمشى أبناء جلدته ، ولكنه لا يفكر بعقله كما يفكرون ، ولا يحس بأحاسيسهم كما يحسون ، ولا يميل بقلبه إلى عقيدته ووطنه كما يميلون .

لقد استطاعت الحروب الباردة التى استعملها الأعداء ضد المسلمين أن تمسخ عقولهم ، وتشوه ألسنتهم ، وتطمس على قلوبهم ، فهم لا يفكرون إلا بعقول الأعداء ، ويفضلون لغتهم على لغة الآباء ، ولا تلين قلوبهم إلا عند ذكرهم ، وهذا هو الذى سبب دهشة المخلصين وحيرتهم حتى أصبحوا يبحثون عن علاج لتلك الأدواء التى ابتلى بها المسلمون .

إنهم يرون فى كل يوم حربا من طراز لم يألفوه ، وفى كل ميدان معركة ليس لها نظير ، وأسلحة فتاكة صنعت خصيصا لإبادة المسلمين .

فهناك الغزو الفكرى الخطير ، والإغراء الجنسى الهابط ، والإلحاد والتحلل ، والدس فى مناهج التعليم ، كل هذه ألوان من الحروب التى استحدثها الأعداء ليسلخوا المسلمين عن دينهم ، ويبعدوهم عن مصادر قوتهم وعزهم ويذللوهم لأهوائهم وأفكارهم .

ويحسن بنا أن نتناول هذه الألوان بشيء من الإيجاز يتناسب والمقام ، ثم نبين كيف يتقيها المسلمون ويعملون على إحباطها .

أ – الغزو الفكرى :

لا يزال الغزو الفكرى أخطر أنواع الغزو رغم اختراع الأسلحة الفتاكة بأنواعها المختلفة ، إنه أفتك من القنابل الذرية لأنه يشوه الحياة ولا ينهيها ، وأخطر من الأسلحة الكيماوية لأنه يجعل الإنسان عدوا لدينه ووطنه وعشيرته وليس ذلك فى مقدورها ، إنه لون جديد ناعم من ألوان الحرب التى لجأ إليها الأعداء بعد فشلهم فى معارك السلاح والكفاح .

إنه غزو منظم مكتوب ، نقرؤه على صفحات الجرائد والمجلات فى صورة قصة شيقة أو نكتة مسلية أو مقال أدبى أو حوار فنى أو أغنية داعرة ، وهو غزو مسموع منمق تحمله إلينا الإذاعات عبر الفضاء فى القوالب السالفة نفسها ، وهو غزو مشاهد مزوق يبثه التلفاز فى صور حية متحركة من النساء العاريات والشباب الخليع وأبطال الرياضة المخنفسين ونجوم الخيالة (السينما) المفتونين وكواكب الغناء المستهترين المجانين .

إنه غزو اقتحم كل قلب ، وطرق كل باب ، وتسلل إلى كل نفس ، وعشش فى كل بيت ، وليس هناك من يزعم أن هذا الغزو الرشيق لم يصل بعد إلى داره إلا نفر يسير نرجو أن يجعلنا الله منهم وأن يثبتنا جميعا على الحق الذى آمنا به وعرفناه .

ولقد ظهرت آثار هذا الغزو على كثير من المسلمين ، حتى أصبحت ظواهرهم إعلانا سافرا ودعوة ملحة لقبول هذا الغزو أساسا لعلاقات الناس ومعاملاتهم ، وأصبح الذين ينكرون ذلك ، ويدعون إلى التحذير منه ، وينبهون الأمة على خطره منبوذين فى مجتمعاتهم الممسوخة التى تعتبر فى نظر المنصفين تزييفا لخصائص هذه الأمة وافتراء على مقوماتها ، وراح أولئك الممسوخون المشوهون يرمون المصلحين بالرجعية والتخلف والجمود .

إن هؤلاء الممسوخين الذين يفتخرون بتراث غيرهم ، ويتباهون بما لم تصنعه أيديهم ، ويتخذون من الغزاة أصدقاء على حساب عقيدتهم وتقاليدهم ، إن هؤلاء لهم المعتوهون حقا ، وسيكونون هم الضحية الأولى لذلك الغزو الخبيث ، ويومئذ يعضون أصابع الندم ، ولات ساعة مندم ، وعليهم ينطبق قول شوقى :

ملأ الجو هتافا بحياتى قاتليه
ياله من ببغاء عقله فى أذنيه

هذا الغزو هو المعروف الآن بعمليات غسيل المخ ، ومهمته أن ينتزع المعارف الأصيلة والمبادىء القويمة ، والأفكار الصحيحة من عقول الناس ليحل محلها معارف زائفة ، ومبادىء دخيلة ، وأفكار سقيمة .

إن وظيفة هذا الغزو الحقيقية هى تطويع الإنسان الذى يتعرض له ليكون آلة سهلة التحريك فى يد الغزاة ، يغرسون فى عقله أفكارهم فلا يؤمن بغيرها ، ويرددون أمامه ، مبادئهم فلا يتكلم إلا بها .

يعرضون عليه حضارتهم ، ويزيفون التاريخ لئلا يرى غير صورتهم ويقتلعون من قلبه حب وطنه ، ويلقنونه حبهم والإخلاص لهم .

يقدمون له ذلك كله فى صور خادعة ، وكلمات معسولة ، وتصنع فى المعاملة لا يدركه إلا ذوو البصائر المستنيرة ، ولا يزالون به حتى يكون تفكيره بعقولهم ، وكلامه بلسانهم ، وولاؤه لحضارتهم ومبادئهم وعندئذ يصبح ذلك الشخص وبالا على أمته ، وبلاء على بنى جلدته ، وعندئذ يطمئن الغزاة إلى أن هذه الأمة التى أثمر فيها هذا الغزو أصبحت فى جيوبهم ، يحركونها بأصابعهم ، ويربطون مصيرها بكيانهم ، ويجدون من أبنائها من يحقق لهم رغبتهم ومصالحهم .

ب – الإغراء الجنسى :

وهذا النوع من الإفساد ناعم الملمس ضارى النتائج ، لين المظهر قاسى المخبر ، يتذرع دعاته بالتقدم ، ويتظاهرون بحرية المرأة و يستترون خلف الحضارة ، وليس لهم من وراء ذلك غاية إلا نبذ الفضائل والتخلى عن مكارم الأخلاق وإشباع نزواتهم المحمومة ، وإطفاء غرائزهم البهيمية .

ولست أدرى ، من المرأة التى صرخت فى هؤلاء لينقذوها ؟ ومن تلك التى استغاثت بهم لينجدوها ؟؟

يالك من مخلوقة مظلومة ! لقد أخرجوك من خدرك المصون زاعمين أنهم يريدون تحريرك ، ومتى كنت مملوكة حتى يحرروك ؟

إن المرأة منذ خلق الله الخلق حرة طليقة ، تنجب الرجال الأفذاذ ، وتصنع الأبطال الأشاوس ، ولقد حفظك الله ، وأمر بصيانتك لتقومى بالمهمة العظيمة المنوطة بك ، وضرب عليك الحجاب ليصونك من عبث العابثين ، ومجون الماجنين ، وأحاطك بالإجلال والتوقير كما تحيط الصدفة باللؤلؤة لحمايتها من كل معتد أثيم .

فما بال هؤلاء المسعورين يغيرون عليك فى غفلة من أبنائك البررة ، ويخرجونك من قصرك المنيع ، وينزلونك عن عرشك الرفيع ، ويتركونك فى الشوارع هائمة حائرة لا تدرين إلى أين تذهبين .

ولست بذلك أدعو إلى ما يزعمه الزاعمون من جعل المرأة كما مهملا أو سلعة تباع وتشترى ، أو دمية تزين بها المتاحف والقصور ، أو قطعة من أثاث فاخر تزخرف بها الغرف والصالونات .

معاذ الله أن يكون الإسلام داعيا إلى شىء من ذلك ، أو يكون المسلمون الواعون يفهمون ذلك الفهم .

إن الإسلام هو أول من أنصف المرأة يوم كانت لا يلتفت إليها أحد ، ولا يعبأ بها مخلوق ، وهو الذى وقف إلى جوارها يشد أزرها وينزلها تلك المنزلة الرفيعة .

الإسلام هو الذى اعتبر المرأة صنو الرجل ، فأعطاها من الحقوق كل ما أعطاه الرجل ، وكلفها بالواجبات كما كلفه ، وجعل لها من الأجر والمثوبة على ما تعمل من الصالحات مثل الذى جعل له ، قال - تعالى - : ﴿ ومن يعمل من

الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ، ولا يظلمون نقيرا ﴾[1] .

والإسلام هو الذى قدم بر الأم على بر الأب ، حيث أمر الرسول ﷺ ببرها ثلاثا ، وأمر فى الرابعة ببر الأب ، والإسلام هو الذى جعل الجنة فى رضاها وتحت أقدامها ، وخص النساء فى القرآن الكريم بسورة من طوال سوره ، فصل فيها أحكامهن ، وفرض لهن حقوقا ، وأوجب عليهن واجبات .

إن الإسلام حين ينادى بإكرام المرأة والمحافظة عليها ، وحين يصونها من الأيدى العابثة الملوثة ، وحين ينأى بها عن التبذل والمهانة ، لا يريد إلا أن تظل المرأة جوهرة ثمينة ، مصونة الشرف رفيعة القدر غالية المنزلة .

أرأيت لو أن إنسانا يملك لؤلؤة ثمينة أو ألماسة نادرة ، فهل تراه يلقى بها فى الطريق أم يختار لها المكان المناسب الذى يصونها عن أيدى اللصوص ، ويحفظها من عيون الحاسدين ، ويبعدها عن عبث العابثين ، قل لى بربك ، أى الأمر تفعل إذا كنت تملك تلك اللؤلؤة الثمينة ؟

وإننا لو استفتينا أى عاقل فى شأن من يلقى بالأشياء الثمينة فى عرض الطريق ، لأفتى بأنه أحمق سفيه يجب الحجر عليه ، وحرمانه منه .

والإسلام يعتبر المرأة من أنفس المخلوقات وأثمنها لهذا أمر بالمحافظة عليها وصيانتها .

ماذا يريد دعاة السفور والاختلاط ؟

إنهم يقولون : نريد أن نسوى بين المرأة والرجل فلا يكون هناك فرق بينهما .

وهم بذلك يشوهون صورة المجتمع الرائعة المنسقة المنسوجة من الذكر والأنثى وهل هناك معنى لهذا إلا أن يصبح المجتمع كله – بعد التسوية – من نوع واحد ، فإما أن يكون كله رجالا ، وإما أن يكون كله نساء ، وهذه محاولة فاشلة

---

(١) سورة النساء : الآية ١٢٤ .

لا يقبلها الرجال ولا النساء العاقلات ، ولا أعتقد أن هناك أحد يقبل بهذا ، فلا المرأة ترضى أن تكون رجلا ، ولا الرجل يقبل أن يكون امرأة .

إن الله – عز وجل – بحكمته ، خلق كلا النوعين ، وأعطى لكل نوع خصائصه ومميزاته ، وحبب إلى كل منهما هذه الخصائص وتلك المميزات حتى بلغ ذلك الحب حد التعصب للجنس ، ولهذا يغضب الرجل ويثور حينما يوصف بأنه كالمرأة ، ويشتد غضب المرأة ويزيد انفعالها عندما يقال إنها كالرجل ، وليست ثورة الرجل ، وليس انفعال المرأة إلا لأن كلا منهما قد أحس بالإهانة والازدراء حين سلبت خصائصه ومميزاته ، ونسب إلى خصائص ومميزات لا تتفق مع طبيعته .

تلك حقيقة تحدث تلقائيا وبدون شعور فى كل عصر وفى كل حين حتى مع هؤلاء الذين ينادون بالمساواة ، ويحملون لواء تلك الدعوة المأفونة .

إن جمال المجتمع وروعته لا تتم إلا بوجود الصنفين معا ، فلكل منهما وظيفته التى لا يستطيع غيره القيام بها ، ولكل منهما قدراته وإمكاناته التى يعجز غيره عن أدائها .

ولو تصورنا مجتمعا كله من الرجال أو النساء ، لكان فى هذا المجتمع من النقص بقدر ما ينتقص من الصنف الآخر ، فصورة المجتمع المتوازن وحقيقة الجمال فى أى مجتمع تكمن فى وجود الذكر والأنثى ، وتمتع كل منهما بخصائصه ومميزاته بحيث لا يطغى جنس على جنس ، ولا نتهاون فى صنف من أجل صنف .

ماذا يريد دعاة المساواة بين الرجال والنساء ؟ وماذا يقصدون من رفع هذا الشعار ؟

إنهم فى الحقيقة لا ينصفون المرأة ولا يحررونها كما يزعمون ، ولكنهم فى الواقع يقضون على هذا الجنس ، ويمحونه من الوجود ، إن حقيقة المساواة التى يريدونها ليس وراءها إلا إلغاء أحد الجنسين ، وأكثر ما يكون الإلغاء فى المقيس لا فى المقيس عليه ، وإذا تمت المساواة على هذا النحو نكون قد فقدنا نصف

المجتمع على الحقيقة حيث تكون المرأة قد ألغيت من المجتمع لتحل محل الرجال ، وتقوم بوظائفهم .

ومهما حاول دعاة هذه الفتنة فإنهم لن يستطيعوا تغيير حقيقة المجتمع وجوهره ، فالرجل هو الرجل لا يستغنى عن المرأة ولا تستقيم الحياة بالنسبة لها إلا به ، والمرأة هى المرأة لا تستغنى عن الرجل ، ولا يتم نظام المجتمع إلا بها ، وكلاهما فى الحقيقة هما المجتمع السوى القائم على الجمال والحق والعدل والخير .

ولكن ومع شديد الأسف ، لقد أصبحت هذه الدعوات الوافدة على بلادنا الإسلامية وفود الحمى محل نظر واقتناع من كثير من الناس ، حتى غدت خلقا اجتماعيا يدل على ظرف فاعله ولباقته وحسن تصرفه .

ولا تكاد تجد رجلا لا يقدم لك زوجته لتتعرف عليها وتصافحها إلا نادرا ، والرجل الذى يضن بزوجته أن تخالط الرجال ، وتأبى عليه مروءته أن يصافح النساء يعيش فى هذا المجتمع غريبا ، بل هو فى نظر هؤلاء جلف غليظ ، قليل الذوق ، لم يعرف نظم المجتمعات محروم من أعرافها وتقاليدها التقدمية .

جـ - الإلحاد والخروج على الدين :

وهناك دعاة الإلحاد والخروج على الدين والتخلص من أعبائه وتكاليفه ، والتجرؤ على ذات الله - تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا - وقد بلغت الوقاحة بمجلة تمثل جيشا فى دولة تدعى أنها عربية ومسلمة أن تقول : الله والرسل والأديان ، دمى يجب أن تعرض فى متحف التاريخ لتتفرج عليها الأجيال المتلاحقة .

وينادى بعض الكتاب فى بلد عربى آخر بعد الهزيمة المنكرة التى منيت بها الجيوش العربية فى عام ١٩٦٧ م بوجوب نبذ الدين ، والتخلص من نظمه وتعاليمه مدعين أن الدين هو السبب فى تأخرنا وهزيمتنا ، ويقولون : إننا لم نصل إلى هذا الحد من التخلف إلا لتمسكنا بالدين ، وإن أوروبا لم تبلغ ما بلغت من التقدم والرقى إلا منذ جعلت الدين دبر أذنها ، وتركت مبادىء خلف ظهرها .

وتكررت تلك الدعوة الانهزامية حتى ألفها الناس ، وأصبحت شعارا يهتف به كل عدو للود للإسلام والمسلمين ، وساعدت على ذيوعها وانتشارها وسائل الإعلام الخاضعة لتخطيط اليهود ومن والاهم ، وركز الملاحدة على هذه المعانى بغير استحياء .

ونحن نتساءل ، أى دين هذا الذى كنا متمسكين به حين أصبنا بتلك الهزيمة ؟

إنهم ولا شك يقصدون الدين الإسلامى الذى أصبح بهذه الصورة من الضعف والهزال ، ومع ذلك فهم يخشونه ويقدرونه قدره .

وهم لا يريدون من وراء ذلك إلا أن نترك البقية الباقية من تعاليم هذا الدين ، والتى أصبحت تؤدى ممن يؤدونها بصورة آلية صرفة لا تغنى عن صاحبها شيئا ، ولا ترد عنه معتديا .

إن ما بقى من الإسلام عند المسلمين لا يزيد على طقوس ودعوات ومع ذلك نتهم بإننا متمسكون بالدين ، إننا لا نعرف فترة من فترات التاريخ كان المسلمون فيها أكثر تساهلا فى دينهم من تلك الفترة التى ينادى فيها بنبذ الدين ، وهل بقى لدينا شيء منه حتى ننبذه ؟

ونتساءل مرة أخرى ، لماذا لم توجه هذه الدعوة لغير المسلمين ؟

إن اليهود لا يزالون يصرون على تقاليدهم الدينية رغم فسادها ، وقد طالعتنا الصحف بأن بنت موشى ديان – وهى مجندة فى الجيش الإسرائيلى – رفضت أن تأكل طعاما مطهوا يوم السبت الذى سبق المعركة مباشرة بحجة أن الدين اليهودى لا يبيح لهم أكل ما طهى على النار يوم السبت . ونقرأ كذلك فى مفاهيم إسلامية للكاتب جلال كشك بأن رئيس دولة إسرائيل ورئيس وزرائه رفضا أن يركبا سيارة عند تشييع جنازة تشرشل ، لأن ذلك كان يوم السبت ، وقد مشيا على أقدامهما مسافة طويلة من الكنيسة إلى المقابر رغم أنهما كانا يتجاوزان السبعين من العمر ، لأن دينهما يحرم عليهما ذلك يوم السبت .

وكذلك النصارى يصرون على التبشير وإدخال الناس فى دينهم ويبذلون فى ذلك بلايين الدولارات ، وثمين الأوقات ، ويسخرون له خيرة أبنائهم ، وخلاصة أفكارهم ، فلماذا لم توجه الدعوة إلى هؤلاء وأولئك لترك دينهم ؟ أوليس هؤلاء هم الذين يطلب منا أن نقلدهم ونسير فى ركابهم ؟؟

إن المقصود إذن هو الإسلام لا غير .

لقد تكررت تلك الدعوة فى كل مجال وفى كل مناسبة وغير مناسبة ، وفى كل صحيفة وكتاب وحديث ومحاضرة حتى ظن البسطاء أنها الحق الذى يجب أن يطاع ، وأصبح المسلم يستحى أن يظهر دينه وأصبح الرجل المتدين رمزا للبله والدروشة ، والمرأة المحافظة عنوانا للهزؤ والسخرية ، وأصبح الإسلام بعقيدته وعباداته ، وتشريعاته ومعاملاته ، وقيمه وفضائله ، وآدابه وأخلاقه مضغة فى أفواه السفلة والرعاع بتحريض ممن يحملون لواء هذه الأراجيف من أعداء الدين وأبنائه المتأثرين على حد سواء .

لماذا كل هذه الحملة المسعورة على الإسلام بالذات ؟ وأين المتمسكون بدينهم الآن حتى تشن هذه الحملات بلا هوادة ؟؟

إن القاصى والدانى والعدو والصديق ، يصرخون ويشكون من عدم التمسك بالدين ، وإهمال تعاليمه ، وإن الدراسات الواعية والإحصاءات الوافية تؤكد أن ما يعيشه المسلمون الآن من الصغار والهوان إنما هو بسبب البعد عن الدين والانفلات من ربقته ، ولو أن الدين هو سبب ما نحن فيه من الهزائم والنكبات لما انتصر به أسلافنا ولما أسسوا هذه الحضارة التى لا تزال معالمها تشهد بجدارة المسلمين فى كل مكان فتحوه وحلوا به سواء كان ذلك فى أوروبا أم فى آسيا وأفريقيا .

إن المناداة بنبذ الدين مكيدة دبرها الأعداء ، وهى وإن اقتنع بها كثير من أبناء جلدتنا إلا أنها لم تستطع الوصول إلى قلوب المؤمنين ، لأنها منافية لأبسط قواعد التفكير البشرى السوى ، ولئن كانت أوروبا قد بلغت ما بلغت بعد مفارقتها الدين فإن ذلك لا يكون قاعدة للرقى والتقدم لكل من يريد ذلك .

إن المسلمين قد سبقوا أوروبا فى مضمار التقدم والرقى ، وبلغت الحضارة الإسلامية شأواً بعيداً فى وقت كانت أوروبا فيه غارقة فى بحار الجهل والظلمات ، وعبرت الحضارة الإسلامية إلى أوروبا فاستنارت بنورها واهتدت بهديها ، ونسجت على منوالها حتى وصلت إلى ما وصلت إليه .

ولم يتقدم المسلمون هذا التقدم ، ولم يؤسسوا تلك الحضارة إلا وهم معتصمون بدينهم ، عاملون بمبادئه ، متمسكون بعقيدتهم .

أليس هذا دليلا على أن تمسكنا بديننا ، واعتصامنا بعقيدتنا هما سر تقدمنا وتحضرنا ورقينا ؟

إن الدين الذى تحللت منه أوروبا فنهضت تلك النهضة العلمية الكبيرة ليس هو الدين الذى جاء به عيسى – عليه السلام – ولكنه الدين الذى اخترعه القسيسون حين غيروا وبدلوا وحرفوا الكلم عن مواضعه فكان لذلك عقبة فى طريق التقدم والرقى ، فلما ثاروا عليه ، وحطموا خارفة وصاية رجال الدين ، وفضحوا فرية الوساطة بين الله – عز وجل – وبين خلقه ، وأطلقوا العقول وحرروها من حجر رجال الكنيسة كان لابد أن تتقدم أوروبا وتنهض ، لأنها أزالت من طريقها ما وضعه الكهنوتيون من العوائق لإيقاف النهضة ، وعرقلة التقدم .

ويجب أن نعلم أن تقدم أوروبا لم يكن لتحللها من الدين ومفارقتها له ، وإنما كان لأنها سلكت السنن الطبيعية التى جعلها الله سبيلا للوصول إلى الغاية ، واتخذت الخطوات العملية لتحقيق أهدافها ، ولو أننا تمسكنا بديننا ، واعتصمنا بعقيدتنا ، وسلكنا الوسائل التى جعلها الله – سبحانه – أسبابا للوصول إلى المقصود لبلغنا أوج الحضارة ، ووصلنا إلى ذروة من التقدم لم يصل إليها أحد بعد .

على أننا ينبغى أن نفهم أن ما وصلت إليه أوروبا من التقدم والرقى والحضارة هى مدينة فيه للحضارة الإسلامية العريقة التى عبرت إليها عن طريق الأندلس ، وحملها إليها قواد الحملات الصليبية التى أتيح لها فرص الاتصال

بالمسلمين والاستفادة من جوانب الحضارة الإسلامية الأصيلة القائمة على أساس من العقيدة الصحيحة والمدعمة بمبادىء الدين الإسلامى الحنيف .

هذا هو الحق الذى شهد به العدو قبل الصديق ، واعترف به المنصفون من الأوروبيين أنفسهم ، فكيف إذن نفسر هذا الصراخ الذى ينطلق من حناجر الحاقدين الذين ينادون بنبذ الدين والبعد عن تعاليمه ؟

ليس هناك تفسير لذلك إلا أن هؤلاء يريدون منا أن ننحرف عن وسائل عزتنا لنعيش أبد الدهر أذلة صاغرين ، حتى يتمكنوا من القضاء على مقوماتنا ليسهل عليهم تسخيرنا ، ويسلس لهم قيادنا وهم فى بلادهم آمنون .

د - الدس فى مناهج التعليم :

إن مناهج التعليم هى الأسس التى ننشىء عليها أبناءنا ، فيرضعون من لبنها فى طفولتهم ، ويتلمذون عليها فى صباهم ، وهى التى تنقش على صفحات قلوبهم وعقولهم المبادىء التى يدينون بها ، ويخلصون لها .

علم أعداء الإسلام هذه الحقائق فلم يفرطوا فيها ، وآمنوا بقوة تأثيرها فاستغلوها ، والحق أن مناهج التعليم مرتع خصب لأولئك الدساسين ينفثون فيها سمومهم القاتلة ، ويتسللون من خلالها إلى قلوب المتعلمين وعقولهم ، فيغرسون فيها ما يشاءون مما يسهل مهمتهم ، ويعينهم على بلوغ مآربهم .

فكم من مؤتمرات عقدت ، وكم من بحوث قدمت ، وكم من دراسات أعدت ، وكم من ملايين من الدولارات أنفقت ، كل ذلك ليتمكن أعداء الإسلام من وضع الخطط المناسبة لإخراج المسلمين عن إسلامهم ، وإن لم يدخلوا فى أى دين بعد ذلك ، وكانت نتيجة ذلك كله أن افتتاح المدارس ووضع المناهج التعليمية لها هو أقرب الطرق وأسلمها لتحقيق الغرض المنشود .

لقد قرر المبشرون - وهم ألد أعداء الإسلام - هذه الحقيقة ، واعترفوا بأن المدارس ومناهج التعليم هما أهم ما يعتمدون عليه لتحقيق أهدافهم ، والوصول إلى غايتهم .

يقول المبشر هنرى جسب : إن المدارس شرط أساسى لنجاح التبشير ، وهى بعد هذا وسيلة لا غاية فى نفسها ، لقد كانت المدارس تسمى بالإضافة إلى التبشير (دق الأسفين) وكانت على الحقيقة كذلك فى إدخال الإنجيل إلى مناطق كثيرة لم يكن بالإمكان أن يصل إليها الإنجيل أو المبشرون من طريق آخر[1] .

لقد خدع هؤلاء الدساسون البسطاء من الناس بمعسول كلامهم ، وأقنعوهم بأن مناهج التعليم فى الغرب قائمة على أسس علمية تجريبية لا تقبل الشك ، واستسلم هؤلاء السذج لذلك الخداع ، ومكنوا من نقل هذه المناهج إلى بلادنا من غير فحص ولا بحث ، ناسين أو متناسين ما بيننا وبين الغرب من خلاف فى العقيدة ، وتباين فى البيئة وتناقض فى المبادىء والفكر وبون شاسع فى المثل والتقاليد والعادات ، وتلك هى الأسس الرئيسية التى يجب مراعاتها عند وضع المناهج .

لقد نسينا هذه الأسس الرئيسية عند وضع المناهج ، وفرحنا بما جلب لنا من بلاد أعدائنا لمجرد أنها بضاعة أجنبية مستوردة ولم نبال أموافقة هى لعقيدتنا ومبادئنا أم لا .

يقول الأستاذ الصواف – حفظه الله – : « ولتحقيق حقدهم الأسود سلكوا سبلا متشعبة ، ووضعوا قواعد متعددة ، ورسموا مخططات خبيثة ، ولكنها جميعا تمتص وتسقى من جذع أصيل واحد هو التعليم ومناهج التعليم ، فهو أصل الأصول لإفساد العقائد والعقول »[2] .

مناهج التعليم التى سينشأ عليها الطفل ويشب هى من أهم ما اعتنى به أعداء الدين الإسلامى ، وحرصوا على أن توضع بمعرفتهم وتحت إشرافهم ، ولعل هذا هو السر فى أن الأمم المتحدة قد أنشأت مؤسسة خاصة للتعليم تشرف عليها من خلال تلك المؤسسة (اليونسكو) حتى تطمئن إلى سير التعليم على النحو

---

(١) التبشير والاستعمار ص ٦٧ .

(٢) المخططات الاستعمارية للصواف ص ٢٩٢ .

الذى تريده هى ، لا على النحو الذى يريده أهل البلاد التى توضع لها مناهج التعليم .

ولهذا أيضا استكثر المبشرون من افتتاح المدارس على اختلاف مستوياتها ابتداء من روضة الأطفال وانتهاء بالجامعات التى انتشرت فى كل بلد عربى أو إسلامى ، وكان اهتمام المبشرين بمدارس الصغار أكثر من عنايتهم بالمدارس الأخرى لأن تأثير التعليم فى الأطفال أكثر وأعظم من تأثيره فى البالغين والكبار ، وهذا هو السر بلا نزاع فى أن المؤتمرات التبشيرية المتكررة ، والتى كانت تعقد فى كثير من بلاد الشرق الأوسط التى ابتليت بالاستعمار ، كانت تؤكد دائما على الاهتمام بتعليم الصغار .

وفى هذا المعنى يقول المبشر دانبى : « إن المدارس المسيحية تحاول أن تنقل الطلاب إلى جوها الخاص ، ويهيىء لهم جوا مسيحيا ، وتحملهم فيه على ممارسة التقوى المسيحية ، والسلوك المسيحى ، وخصوصا مادام الطالب طفلا ، وهكذا ينشأ الطالب ، وتنشأ معه فلسفة مسيحية للحياة »[1] .

إن المبشرين الآن لم يعودوا يشغلون بالهم بمثل هذه الموضوعات فقد ربوا على أيديهم تلاميذ مخلصين ، يقومون بهذا الدور خير قيام دون أن يتهم أحد من المبشرين أو تتجه إليه أنظار النقاد والمفكرين .

والحقيقة التى لا يمارى فيها أحد هى أننا أصبحنا مفتونين بحب الغرب ، بل وبكل ما يأتى من بلاد الغرب سواء كان ذلك اختراعات آلية ، أم نظم اجتماعية أم مذاهب سياسية أم مبادىء وأفكار جهنمية ، ويكفى لأن نتقبل أى شىء أن يقال لنا : إنه مستورد من الغرب .

وعلم الغربيون نقطة الضعف هذه فى نفوسنا ، وتأكدوا من أن مفتاح كل عقدة أصبنا بها مخبوء فى كلمة الغرب والغربيين ، فاستغلوا ذلك أبشع استغلال ، ورمونا بكل ما يدمر عقيدتنا ، ويفسد مبادءنا وثقافتنا حتى انسلخنا من

---

(١) التبشير والاستعمار ص ٦٧ ، ٦٨ .

شخصيتنا ، ولبس بعضنا جلود غيرنا ، وظهرنا فى المجتمع بلا خجل ولا حياء غربيين أكثر من الغربيين ، كل هذا ولم نسمع نكيرا ، ولم نقرأ نذيرا والأدهى من كل ذلك أننا غمسنا أبناءنا بأيدينا فى هذه الظلمات المتراكمة ، فسلك أبناؤنا فجا غير الذى نسلك ، وقطعوا واديا غير الذى نقطع ، فاختلفت الأفكار ، وتباينت الآراء ، وحدث التنازع ، وكان الفراق ، وأخذ الآباء يجنون ثمرة ذلك عقوقا من الأبناء ، وجفوة لا يكاد يلتئم معها ود ، ولا يجتمع فيها شمل ، وهم فى ذلك كله معذورون ، (فكل إناء بالذى فيه ينضح) .

لقد كان الواجب أن يبتعد أولئك الذين لم يتتلمذوا على هذه المناهج عن هذا التيار الجارف ، وأن يبعدوا أبناءهم وبناتهم عنه ولكنهم مع الأسف قذفوا بأولادهم فى أتونه بعد أن نجاهم الله منه .

وأوحت هذه المناهج للنشء إيحاءات خطيرة ومريرة ، وجنينا من ثمارها صابا وعلقما ، من تشويه للدين ، وتضليل للنشء ، وافتراء على التاريخ .

وترتب على دراسة هذه المناهج فى مدارسنا ما يأتى :

١ - استخفاف الشباب بالدين ، وتجهمهم لكل ما يأتى عن طريقه ، ورفضهم كل ما يتعلق به ، وكانت النتيجة الحتمية لذلك هى احتقار العلماء ، والكذب عليهم ، وتشويه سمعتهم بالحق وبالباطل .

وتجلى ذلك عمليا حتى فى معاملة رجل الشارع لكل متدين متمسك بالآداب الإسلامية ، كما ظهر ذلك فى التمثيليات ودور الخيالة (السينما) وذلك عندما يصورون العلماء فى صورة الدراويش أو الدجالين أوالحريصين على بيع ضمائرهم لقاء درهيمات ، وكذلك حين يظهرونهم فى صورة مشوهة ممسوخة ليكونوا مثارا للهزء والسخرية والاحتقار ، لا هم لهم إلا ملء بطونهم ، ولا غاية إلا الاحتيال والخداع والنصب .

والمؤلم الذى يندى له الجبين ، وتتمزق منه نياط القلوب أننا لم نسمع صوت احتجاج يرد هذه الموجة الطاغية أو يوقفها عند حد لا من العلماء ولا من غيرهم ، وكأن هذا هو الواقع الذى يعيشه العلماء والمسلمون .

نعم ، لقد سمعنا وسكتنا ، ورضينا وسلمنا ، حتى أصبح الناس فى كل مجلس من المجالس إذا أرادوا أن يتندروا أو يتفكهوا لا يجدون مادة الفكاهة والضحك إلا عند المشايخ والعلماء .

صحيح إن هناك طائفة من هؤلاء وأولئك وضعت نفسها فى مواضع الشبهات ، ومنهم من يفعل ما يتندر به ويتفكه بل وأكثر منه ولكن ما ذنب العلم والقرآن ؟ ولماذا يمثل دائما بحملته وحفاظه ؟

إن الذين انحرفوا من هؤلاء يوجد أضعافهم فى كل طائفة من الطوائف فما بال التركيز على هؤلاء وحدهم ؟؟

ليس هناك جواب إلا أن الذين يفعلون ذلك لا يقصدون إلا السخرية من الدين ، ولا يريدون إلا إبراز العلماء والمشايخ فى وضع ينفر المسلمين منهم فلا يقتدون بهم ، ولا يستمعون إلى نصائحهم فينصرفون عنهم ، ويتخذونهم ذريعة لما يرتكبون من الرذائل والآثام .

وذلك هو الهدف المقصود لأعداء الدين ، فإذا تم لهم ذلك وتمكنوا منه يكونون قد وصلوا إلى غايتهم من تدمير المجتمع ، وترك أفراده بغير قيادة ولا قدوة ، ويخلوا لهم الجو ، فيوجهون كما يشاءون ، ويعبثون بالقيم والأخلاق كما يحبون .

٢ – وكانت الثمرة الثانية لهذه المناهج الفجة الغرور الذى أصاب الشباب حين نفثت هذه المناهج سمومها فى عقولهم وقلوبهم ،وأوهمتهم أنهم حصَّلوا من العلوم والمعارف مالم يدركه غيرهم ، وأنهم جمعوا من الفنون والمقاصد ما عجز عنه آباؤهم .

وكانت النتيجة الحتمية لذلك استهانة الشباب بقدر آبائهم ، واستخفافهم بأفكارهم وآرائهم ، وكيف لا وآباؤهم لم يدرسوا شيئا مما درسوا ، ولم يتعلموا فى أوروبا ولا فى أمريكا ، ولكنهم تعلموا فى الكتاتيب وتتلمذوا على أيدى المشايخ والفقهاء ، وأين هؤلاء من أساتذة الغرب وعلمائهم ؟

لقد أصبح المغرورون من شبابنا يستحيون من الانتساب إلى آبائهم ، ولا يحبون الإقامة والعمل فى بلد ولدوا فيه لأن أهله يعرفون الكثير عن حياتهم ، وغدا أحدهم يخجل من رؤية والده ويتمنى لو يموت حتى لا يعير به .

وراح الآباء يتجرعون فى أسى مرارة هذا العقوق فى صور شتى وجنوا ثمرات ما غرسته أيديهم حنظلا وعلقما .

إن هؤلاء الآباء كانوا يتمنون عودة أولادهم ليفرحوا بجهودهم ، ويباركوا كفاحهم من أجل خدمة وطنهم ، ولكن سرعان ما تبدد ذلك الحلم الجميل عندما رأوا أبناءهم قد غيروا وبدلوا وتنكروا لماض لولاه ما وصلوا إلى ما وصلوا إليه .

لقد كان الآباء يعلقون على أبنائهم آمالا كبيرة فى أن يعوضوهم عن الحرمان الذى تحملوه من أجل تربيتهم فخابت آمالهم عندما رأوا تنكرهم وعقوقهم .

إن الآباء قد أنفقوا أموالهم من أجل سعادة أبنائهم فما بال الأبناء يضنون عليهم بالنفقة ، ولا يقدمون لهم أية مساعدة تغنيهم عن مسألة الناس ، وتعوضهم ولو عن بعض ما أنفقوه عليهم .

اللهم إنا نعوذ بك من نكران الجميل ، وتناسى المعروف ، وعقوق الوالدين .

٣ – ثم كانت الثمرة الثالثة وهى جهل الشباب بأمجادهم ، وتزييف التاريخ فى عقولهم ، وذلك حين أوهمونا بأن أمتنا أمة ضارية فى البلادة ممعنة فى الجهل ، ليس لها تاريخ مشرف ولا ماض مضيء .

إنها أمة فقيرة معدمة ، لا تملك ما يقيم أودها ، ويحفظ عليها حياتها ، وهى أمة تعيش فى خرافات وأوهام لا تعرف العلم ولا تحتفى بالعلماء ، وإن الإسلام قد استغل فقرها وجهلها ووجهها لمقاتلة أعداء اصطنعهم ، عندهم الأقوات موفورة ، والأرزاق غير محصورة فخرجت جيوشهم من قلب الجزيرة تبحث عن الطعام ، وتنشد الرخاء .

ومن أجل الطعام والرخاء قاتلوا بوحشية منقطعة النظير ، فاستعمروا البلاد ، وأذلوا العباد ، حتى إذا ما توفر لهم الطعام الذى بحثوا عنه ، والرخاء الذى كانوا يحلمون به ، ركنوا إلى الدعة ، وأخلدوا إلى الراحة فدالت دولتهم ، وانتهت سلطتهم .

هكذا شوهت المناهج الموضوعية بأيدى أعدائنا تاريخنا بأسلوب يتنافى مع أبسط مبادىء الخلق والمروءة والأمانة العلمية ، وصدق الأغرار من شبابنا هذا الدس ، وآمنوا به أكثر من إيمانهم بوجودهم ، وحقهم فى التمتع بحرية الفكر والبحث العلمى ، وكيف لا يصدقون وهو من صنع أوروبا وأمريكا التى هى أمهر البلاد فى صناعة كل شىء حتى صناعة الكذب .

وكانت النتيجة الحتمية لتلك الثمرة الفجة العفنة هى وجود طبقة من الشباب لا تعتز بوطنها ، ولا تكن الولاء لدينها ، وافتخرت بفتات مسموم قدمه لها أعداؤها ، فأعطت خالص ولائها لمن خدعها وافترى على أمجادها ، وشبابنا معذورون ، لأن هذه المناهج جهلتهم ولم تعلمهم ، وشككتهم ولم تغرس اليقين فى قلوبهم (والناس أعداء لما جهلوا) .

وقد تربى على هذه المناهج ، وتتلمذ على أيدى المشككين فئات من الناس اعتمد عليهم أعداء الإسلام لثقتهم فيهم ، واطمئنانهم إليهم ، فاستتروا خلفهم ، وبرز للعيان أبناء جلدتنا ، وأشقاؤنا فى الدين والوطن ، وأخذ هؤلاء يفترون على الإسلام دون أن يشك فيهم أحد ، أو يحذر منهم إنسان ، ورحنا نتلقى الطعنات القاتلات من إخوتنا فى الدين ورفاقنا فى القومية والوطنية .

ودارت المعركة ضارية بين الإخوة والأصدقاء ، وسقط ضحيتها أبناء بررة وإخوة أوفياء ، وانشغل بعضنا ببعض ، وأتيحت بذلك للعدو فرصة نادرة مكنته من الاطلاع على عوراتنا ، وحققت له هدفين طالما تمنى تحقيقهما .

أما الأول : فقد تأكد من إخلاص ربائبه الذين رباهم على عينه واصطنعهم لنفسه ، وقد تمثل هذا الإخلاص فى دفاعهم عن الأفكار التى تلقونها فى مدرسته وعلى أيدى أساتذتهم الغربيين .

وقد بلغ هذا الإخلاص حدا لم يكونوا يتوقعونه ، حين سجنوا الأبرياء من إخوتهم ، وشنقوا المخلصين من بنى جلدتهم ، وعذبوا واضطهدوا الأوفياء من بنى عمومتهم ، ولم يكن ذلك كله إلا لإرضاء سادتهم .

وأما الثانى : فسرورهم الذى لا يقدر ، وغبطتهم التى لا توصف ،وهم يرون العقيدة التي ضاقوا بها ، والدين الذى هدد سلطانهم ، وزعزع أركان دولهم يترنح تحت وطأة تلك الضربات العنيفة التى تعرض لها من هؤلاء التلاميذ الأوفياء .

إن الدس فى مناهج التعليم غاية مقصودة لأعداء الدين و قد حرصوا على أن يتفقدوها الحين بعد الحين ، حتى إذا انكشفت حيلهم وانفضحت مؤامراتهم سارعوا إلى التغيير وعدلوا خططهم حسبما تقتضيه الظروف .

وكذلك إذا انكشفت وجوه اللاعبين ، وثبتت خيانتهم لأوطانهم تداركوا ذلك بتبنى وجوه جديدة حتى تستمر المسيرة ، ويضمنوا السلامة لمبادئهم وأفكارهم .

وقد عمد هؤلاء إلى افتتاح المدارس ليضعوا مناهجها كما يشاءون ، وبالشكل الذى يحبون ، وكانت عنايتهم بمدارس البنات أشد ، واهتمامهم بوضع مناهجها أقوى ، لأن البنات اليوم هن أمهات المستقبل ، وإذا رضعت إحداهن هذا اللبن المسموم فسوف ترضعه أبناءها زعافا قاتلا ، وستكون كل فتاة تخرجت من هذه المدارس مدرسة وحدها ، وبذلك يكونون قد فتحوا فى كل بيت مدرسة أو أكثر تعمل لحسابهم ، وتحقق آمالهم ورغباتهم دون أن يتحملوا إيجار المبنى أو مرتبات المدرسين والموظفين .

ومن أجل هذا يقول المبشر جسب : « إن مدارس البنات فى بلاد الإسلام هى بؤبؤ عينى ، لقد شعرت دائما أن مستقبل الأمر فى سوريا إنما هو بمناهج تعليم بناتها ونسائها » .

لقد بدأت مدرستنا (للبنات) ولكن ليس لها بعد بناء خاص بها ، وهى

قد أثارت اهتماما شديدا فى أوساط الجمعيات التبشيرية[1] .

ولهذا لم يتأخر المبشرون فى افتتاح مدارس البنات ، فقد افتتحوا أول مدرسة للبنات فى الإمبراطورية العثمانية عام ١٨٣٠ م وكان ذلك فى بيروت ، ثم واصلوا جهودهم فى ذلك فافتتحوا مدارس للبنات فى مصر والسودان وسوريا والهند والأفغانستان[2] .

وهذا هو الذى يفسر لنا سر تلك الحملات المسعورة على المناهج الإسلامية فى البلاد التى وقعت تحت نير الاستعمار كالهند والعراق ومصر وإيران و الأردن والسودان .

وكما كانوا يهتمون بتعليم البنات بصفة عامة ، فإنهم كانوا يهتمون اهتماما بالغا بالمدارس الداخلية التى يكون لهم فيها السلطة المطلقة على الفتاة ، فإنهم عن طريق المدارس الداخلية كانوا ينتزعون الفتاة انتزاعا كاملا عن بيئتها التى تعتبر المحضن الحصين لها ، والتى كانت تحيط الفتاة بالكثير من التعاليم الدينية التى تجعل أثر المدارس التبشيرية عليها ضعيفا بحيث لا يتمكنون من تشويش المعلومات الدينية فى نفس الفتاة وعقلها .

كذلك وجهوا عناية خاصة لبنات العائلات الكبيرة التى كان الرجال فيها بيدهم مقاليد البلاد يسيرونها كما يشاءون ، فكان لابد من توجيه هؤلاء الرجال إلى الطريقة التى تسهل مهمة المبشرين وتيسر بالتالى مهمة المستعمرين ، ولم يكن هناك وسيلة أكثر تأثيرا فى بيوت هؤلاء من المرأة ، فوجب أن تعد إعدادا يمكنها من القيام بهذا الواجب الخطير ، والذى يستطيعون عن طريقه الوصول إلى الغاية التى رسموها ، وحددوا معالمها .

تقول المبشرة أنّا ميليغان : « فى صفوف كلية البنات فى القاهرة بنات آباؤهن باشاوات وبكوات ، وليس ثمة مكان آخر يمكن أن يجتمع فيه مثل هذا العدد من البنات المسلمات تحت النفوذ المسيحى ، وليس ثمة طريق إلى حصن

---

(١) التبشير والاستعمار ص ٨٧ .

(٢) نفسه .

الإسلام أقصر مسافة من هذه المدرسة »[1] .

ويقول الأستاذان الفاضلان خالدى وفروخ تعليقا على هذا الكلام : « من أجل ذلك طلب المبشرون الأمريكيون منذ عام ١٨٧٠ م مبلغ ثلاثين ألف دولار لمدرسة دينية للبنات فى بيروت وعللوا طلبهم هذا بقيمة المرأة فى الحياة البيتية ، وأن تلك المدرسة ستساعد على تنصير سورية فى المستقبل »[2] .

هذه نماذج من فنون الحرب المختلفة الأشكال والألوان ، وكلها تسير فى اتجاه واحد ، وتعمل لتحقيق غاية واحدة هى تدمير العالم الإسلامى دينيا وفكريا وسياسيا وأخلاقيا ليخضعوه للنفوذ الاستعمارى الغاشم .

فما واجب المسلمين نحو ذلك ؟ وكيف يواجهون هذه الأساليب ليدافعوا عن دينهم ، ويحموا عقيدتهم ؟؟

كيف نواجه هذه الأساليب ؟

عرضنا فيما مضى ألوانا شتى مما شنه أعداء الإسلام على هذا الدين من الحرب الضارية التى هدّدوا بها حصونه وزلزلوا أصوله فى نفوس كثير من المسلمين .

فمن الغزو الفكرى الذى حولوا به مفاهيم الناس ، إلى الإغراء الجنسى الذى حطموا به معنويات الشباب وأفسدوا أخلاقهم ، إلى الدعوة إلى الإلحاد وتشكيك الناس فى عقيدتهم وشريعتهم ، ثم إلى الدس فى مناهج التعليم ، ومحاولة السيطرة عليها ليوجهوا النشء من خلالها الوجهة التى يريدون .

والسؤال الذى يطلب الإجابة هو ، كيف يواجه المسلمون كل هذه الأساليب ؟

لا شك أن من أهم واجبات الجنود فى الإسلام التصدى لهذا الزحف الأثيم ، والوقوف فى وجهه حتى لا يستشرى ، فيزعزع العقيدة فى نفوس

---

(١) التبشير والاستعمار ص ٨٧ .

(٢) المصدر والصفحة السابقين .

المؤمنين ، وإننا نعتقد أن هذا الكيد المحبوك مهما كان مدبروه ، ومهما بلغ من نفوس الناس فإنه لا يلبث أن يزول وينمحي كل أثر له إذا وجد من يبصر المسلمين بحقيقة دينهم ، وينير لهم الطريق ليتأكدوا من حقيقة المتآمرين عليهم .

على أنه ينبغي أن نعلم أنه لن يخلو جيل من الأجيال من موجهين يقيضهم الله – عز وجل – ليفقهوا المسلمين فى دينهم ويوقفهم على ما يراد بهم ، ويكشفوا المؤامرات التى تدبر لهم .

وإنه لمن لطف الله بعباده أن يهيىء لهذه الأمة فى هذه الظلمات رجالا عاملين يقفون فى وجه هذا الكيد ، ويصممون على التصدى له مهما كانت العقبات ، ويصرون على كشف هوية هؤلاء الذين ولدوا على أرض عربية وليسوا بعرب ، وتسموا بأسماء إسلامية وما هم بمسلمين ، واتجه هؤلاء المصلحون بفضح هذه الأساليب مهما تعددت ، وإظهار مخبوئها مهما تسترت .

وبدأ القوم بأنفسهم فامتنعوا عن الرضوخ لتلك الحرب ، وقاموا فى كل ميدان ، واستعصوا على كل فكر دخيل ، ودرسوا أساليب الأعداء ليستعملوا معهم الأسلحة نفسها التى استعملوها ضد المسلمين .

ونشط المصلحون فى ميادين الحياة المختلفة ، واتصلوا بجمهرة الناس وأذاعوا أفكارهم فى أساليب مختلفة كالمحاضرات والندوات والمناظرات وانتهزوا الفرص ليجمعوا المسلمين ، ويبصرونهم بما يراد بهم ، ونشرت هذه الأفكار الإسلامية الصرفة فى كتب ونشرات ، والصحف والمجلات وتبناها تلامذة هؤلاء المصلحين ، فحملوها إلى كل بيت ، ونادوا بها فى كل مكان .

وبدأت ثمرات هذا الغرس الطيب تظهر فى كل مجال ، وتحتل وضعها المناسب فى كل صعيد ، فى الجامعات والمدارس ، والمصانع والمعامل والمتاجر والمزارع ، والتف الناس حول هذا الفكر الحر الأصيل النابع من مبادىء الإسلام الحنيف .

ونشأ فى أحضان ذلك العمل الإسلامى المجيد جيل مؤمن قاوم ولم يتردد ، واعتز بتراثه ولم يرض بغيره ، واعتصم بدينه ورفض كل ما سواه .

لقد تأكد هؤلاء المصلحون بأن الغزو الفكرى لا يقوى على اقتحام العقول التى فهمت حقيقة الإسلام ، وتفقهت فى مبادئه وأصوله ، واقتنعت به عقيدة وشريعة ومنهجا للحياة صالحا لكل زمان ومكان ، فأخذوا الناس بذلك ، وألفوا الكتب لتثبيت مبادىء الإسلام فى عقول المسلمين وقلوبهم وردوا على الشبهات والأباطيل التى زورها الغزاة والمفترون على هذا الدين فانفضح أمرهم وبارت تجارتهم .

وانطلق الدعاة يحذرون الناس من هذا الغزو الخبيث ، ويشرحون عقيدة الإسلام السمحة ، ويبينون مبادىء المعطاءة التى تغنينا عن كل دخيل ، وتضمن لنا الأمن والرخاء والسعادة وهى الأمانى التى يفقدها العالم اليوم ، وهكذا أغلق الدعاة منافذ ذلك الغزو فانزوى قابعا فى عقول حامليه ولو إلى حين .

إن واجب الجنود المسلمين أن يتسلحوا بالعلم والتفقه والدراسة الواعية البصيرة حتى لا يخدعوا بأقوال دبجها الأعداء ، أو يخضعوا لأفكار لا تمت إلى الإسلام بنسب ولا صهر ، إننا بالعلم نستطيع أن نرد هذا الغزو على عقبيه ، ونحبط المؤامرات التى تحاك لنا فى الظلام ، ونعيد المسلمين إلى المصادر الصحيحة التى يتلقون منها معلوماتهم ، وبالعلم نستطيع أن نكشف الأباطيل التى تدس علينا ليشوهوا بها سماحة الإسلام ويسر مبادئه ، وبالعلم نرفض دعوة الإلحاد والاستخفاف بالدين ، لأنها دعوة تتنافى مع الفطرة السوية التى فطر الله الناس عليها .

إن الإلحاد مع كثرة دواعيه ، وضخامة الأبواق الداعية إليه شىء لا يثبت أمام التحقيق العلمى ، لأن كل شىء فى هذا الكون يدعونا إلى الإيمان بخالق الكون ، وإن الاكتشافات العلمية الحديثة تؤكد اتجاه الإنسان وميله الفطرى إلى الإيمان بإله واحد ، بل وتدعو إليه .

ولقد أدرك الإنسان منذ حقبة طويلة من الزمان تلك الحقيقة ونطق بها قبل أن يثبتها العلم ويدعو إليها ، فقديما وقبل أربعة عشر قرنا قال أمية بن أبى الصلت :

أيا عجبا كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد
وفى كل شىء له آية ... تدل على أنه الواحد

فدعوة الإلحاد والاستخفاف بالأديان دعوة منبوذة مرفوضة لا يقول بها إلا معتوه ، ولا يؤمن بها إلا أحمق ، والعلم هو الحقيقة التى لا يمارى فيها المؤمن والملحد على حد سواء ، لهذا فنحن نحتكم إليه .

وبالعلم نضع مناهج التعليم ، ونكتشف ما دس فيها على الدين ، وما اختفى فى ثناياها من التزوير والكذب على تاريخنا ، ونعلم الناس الحقائق التى لا غنى لهم عنها حتى نرد كيد الكائدين فى نحورهم .

وأما الإغراء الجنسى فقد وضع له المربون المسلمون العلاج الناجع من صميم مبادىء الإسلام وتعاليمه ، فدعوا الشباب إلى الزواج المبكر ليعصموا أنفسهم من التردى فى الفسق ، ومن لم يستطع ألزموه بجانب هام من جوانب التربية الإسلامية ، وهو جانب التربية الروحية التى دعا إليها الإسلام ككثرة الصيام لأنه يضيق مجارى الشيطان فى جسم الإنسان ، وقيام الليل لأنه يربط المؤمن بالله – تعالى – والإكثار من ذكر الله وتلاوة القرآن ، لأن ذلك يجعل المؤمن موصول القلب بربه دائما ، وذكر الموت وما يعقبه من الوحدة والوحشة وظلمة القبر وعذابه ثم الحساب والعقاب للعاصين أو الثواب والنعيم للطائعين ، لأن ذلك يزهد الإنسان فى الدنيا ويشغله عن التفكير فى اللهو وارتكاب المعاصى فإذا ما اختلس الشيطان منه ساعة غفلة تذكر وأناب ، وعلم أن الله مطلع عليه يراقبه ، فيمسك إذا لم يرتكب المعصية ، ويتوب ويندم إذا وقع فيها .

على هذا النحو فهم الجنود المسلمون واجبهم نحو دينهم ، وتسلحوا بما يمكنهم من مواجهة عدوهم ، وبذلك استطاعوا أن يحبطوا كل مؤامراته ويسلطوا الأضواء على ما أخفاه فى صدره ليستيقظ النائم ويتنبه الغافل .

ولا نستطيع أن نقول إن المسلمين جميعا قد استفادوا من تلك اليقظة الفكرية والصحوة الدينية ، لأننا لازلنا نرى منهم من يدعو بدعوى الجاهلية ويتبنى الفلسفة العلمانية ، ولكننا نستطيع أن نجزم بأن الذين استفادوا من برامج التوعية التى قام بها الدعاة والمصلحون عدد غير قليل ، وهم – ولله الحمد – كافون لسد تلك الثغرة والقيام بهذا الواجب الدينى الذى فرضه الإسلام على أتباعه .

ولقد استطاع هؤلاء فعلا أن يقيموا سدا منيعا فى وجه تلك الدعوة الوافدة ، فعوقوا مسيرتها ، وأفسدوا خطتها ، وفضحوا ما كان خافيا من أسرارها ، وبهذه الجهود المضنية ، وبتلك اليقظة الداعية أوقفوا هذا المد الخطير ، وعطلوا سير هذا الزحف الأثيم .

وهنا تنبه رواد الفتنة وأحسوا بردود الفعل تقف حائلا بينهم وبين كل ما أرادوه من غزو العقول وإفساد الضمائر والانحراف بالمسيرة الخيرة إلى مهاوى الفسق والضلال .

فماذا كان موقفهم من هذا النفر من المؤمنين ؟

لا شك أن الغيظ قد أكل قلوبهم ، وأن الحقد قد فرى أكبادهم ، فأعلنوها حربا شعواء حامية الوطيس ، استعملوا فيها الحديد والنار ، وكل مالا يخطر للإنسان على بال ، وأخذ المبادرة إلى المعركة التلامذة المخلصون ، فحاربوا بشراسة لم يعرف التاريخ لها مثيلا .

وبدأت المعركة بالوعيد والتهديد ، فلم يفلح ذلك بالسلاح الذى أصدأه طول العهد ، فطوروها إلى السجن والتشريد ، وصمد المؤمنون ، ولم يتزعزعوا ، فاستعملوا من الأساليب الوحشية مالم يعرف لها البشر نظيرا فى تاريخهم الطويل فنزعوا الأظافر وأحرقوا الجلود ، ونفخوا البطون ، ومزقوا الظهور ، ونصبوا المشانق فقتلوا الأبرياء من المفكرين والعلماء ، ويتموا الأطفال ، ورملوا النساء ، وجعلوا فى كل بيت مأتما ، وأقاموا فى كل شارع جنازة ، وفى كل قلب لوعة وحسرة ، وواجه المؤمنون ذلك كله بالصبر والاحتساب ، ولم يزدهم طغيان الظالمين إلا إيمانا وتسليما ، ولم يكن ما تحملوه من ألوان العذاب ، ولا ما أصيبوا به من القتل والسجن والتشريد ليصرفهم عن دينهم وهم الذين باعوا أرواحهم لله ، وعاهدوه على حماية الإسلام والدفاع عنه مهما كلفهم ذلك من النفس والنفيس .

إن الدفاع عن الإسلام وحمايته من اعتداء المعتدين فرض على المسلمين لا يسقطه جور جائر ولا عدل عادل ، والصمود فى هذه الجبهات لرد الشبهات

وإيضاح الحق والثبات عليه لا يقبل الله – عز وجل – من المسلم سواه ، كل على قدر طاقته ، وإن دراسة شبهات المبطلين والرد عليها ، وتخصص طائفة من العلماء لبيان فسادها ، وغرس المفاهيم الإسلامية الصحيحة فى عقول الناس كبديل عنها كان على المسلمين حتما مقضيا .

ولست أقصد بالدفاع السب والشتم ورمى الأعداء بالكفر والإلحاد والنقائص ، ولكنى أقصد الدراسة الواعية الجادة النافعة التى تمكن الشباب من دحض افتراءات المفترين ، والتخطيط البارع الذى يلاحق الغزاة فى كل مكان ، ويغلق عليهم كل درب حتى يفروا أو يستسلموا ، والوقوف على الأساليب التى يستعملها الخصم لاستخدامها فى الرد عليه وإفساد خططه .

فمقارعة الحجة بالحجة ، واستعمال الوسائل العلمية الحديثة ، والإقناع المستند على الدليل العقلى ، وضرب الأمثلة من واقع الحياة لإثبات صحة ما نقول والاهتمام بتربية النشء تربية سليمة مع إحاطتهم بالرعاية الكاملة والعناية الشاملة التى تحول بينه وبين التردى فى فخاخ المخادعين .

ودراسة التاريخ الإسلامى على ضوء الأصول والقواعد التى وضعها العلماء لدراسة السنة النبوية الشريفة لتنقيته من الشوائب التى علقت به ودسها المغرضون بين أحداثه ، وإعادة كتابته بأسلوب عصرى جذاب مؤثر بحيث يشد القلوب بجاذبيته ، ويستقر فى العقول بروعة أحداثه وتدريسه للناشئين بطرق تربوية ملائمة لظروفهم وعقولهم كل ذلك من أنجح وسائل الدفاع عن الإسلام .

فلابد إذن من وجود طائفة من العلماء تتصدى للغزو الفكرى ، ترد شبهاته ، وتوضح قدرة الإسلام على مواجهة هذا الغزو ، وتقرر أصالته كدين جاء لإنقاذ البشرية الضالة ، وتثبت للعالم أن فى ديننا ما يغنينا عن الاستيراد ، وما يكفينا لإقامة حضارة إنسانية عالمية يسعد بها الناس كل الناس ، وينعمون فى ظلالها بتذوق المعانى التى حرموا منها تحت وطأة الحضارة المادية التى يعيشون فيها محرومين من الأخوة والمحبة والإيثار .

ولابد من وجود طائفة من المصلحين ترد الإنسانية الحائرة إلى رشدها الذى فقدته ، وتوقظ عقلها الذى عطلته ، وتعيدها سيرتها الأولى ، فترفض الإتجار بالأجساد ، والمساومة على الأعراض ، وتدلل بالحجة والبرهان على أن الإغراء الجنسى ليس من طبيعة الإنسان ، وإنما هو غريزة حيوانية بهيمية تتنافى وحقيقة الإنسانية التى تتمتع بالعقل ، وتتسم بالهدوء والاتزان .

ولابد من وجود طائفة مؤمنة تثبت فساد الكون واضطرابه إذا لم يديره إله واحد قادر لا يعجزه شيء ، كما تثبت فساده إذا تعددت الآلهة ، وتقرر وضوح عجز الطبيعة عن إيجاد نفسها ، فكيف توجد غيرها ؟ وفاقد الشيء لا يعطيه .

كذلك توضح حاجة العالم وافتقاره إلى رسالات السماء ، وعجز العقل البشرى مهما استطاع أن يخترق أسباب الفضاء عن إدراك المغيبات التي لا سبيل إلى الوصول إلى معرفتها إلا عن طريق الرسالات ، وتبين فى النهاية أن العدالة الإلهية تقتضى وجود يوم يرجع الناس فيه إلى ربهم ، فيحاسبهم على ما قدموا فى دنياهم إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، قال – تعالى – : ﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾[1] وقال – عز من قائل – : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾[2] .

ولابد كذلك من وجود طائفة تقف بسلاحها إلى جوار هؤلاء المفكرين والعلماء لحمايتهم وصد عدوان المعتدين على الدين ، ومواجهة الطغيان تجاهد فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله ، وإقامة الدولة الإسلامية التى يفيء إليها المؤمنون ، فيجدون فى ظلها أمنهم ، ويطمئنون فى رحابها على دينهم فيعبدون الله كما أمرهم ، ويقيمون حدوده ، وينفذون شريعته ، ويتكون منهم المجتمع المثالى فى عقيدته وشريعته ، وفى أخلاقه ومبادئه ، وفى عاداته وتقاليده ، تحقيقا لوعد الله الذى لا يتخلف ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٨١ .
(٢) سورة الزلزلة : الآية ٨ .

الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾[1] .

لابد من وجود كل هذه الطوائف فى المجتمع الإسلامى ، ولابد أن يعمل كل فى مجال تخصصه ، لأن التخصص سمة بارزة من سمات العصر الذى أصبح كل شيء فيه يجرى بمقادير ، ولأن التخصص يؤدى إلى إنجاح ما يقوم به المتخصص من الأعمال .

أما عدم التخصص فإنه عين الفوضى ، نعم ، هو عين الفوضى لأن كل فرد فى المجتمعات التى لا تهتم بالتخصص يعمل كل شيء ، ويتكلم فى كل شيء ، ويتدخل فى كل شيء فهو طبيب ومهندس وفقيه ولغوى وخطيب ومحارب وبالاختصار هو كل شيء فى المجتمع الذى يسمح له بمزاولة كل شيء ، وناهيك عن الفوضى التى تكون فى مجتمع يقوم فيه كل إنسان بكل شيء .

إن عدم التخصص قد يؤدى إلى أخطاء تضر من حيث نريد النفع ، نعم ، يجب أن تتخصص كل طائفة فى مجال من مجالات العمل الإسلامى حتى تتقنه ، وحتى تستطيع أن تفحم من تتصدى له من المعاندين

إن وجود هذه الطوائف فى المجتمع الإسلامى للدفاع عن الإسلام وحمايته ، وإجادة كل طائفة فى مجال تخصصها ، وبخاصة الجيش الذى هو القوة أو الطائفة التى تحمل السلاح فريضة لازمة ، حض عليها الإسلام فى آيات القرآن الكريم ، وأجمع عليها علماء المسلمين .

قال الله – تبارك وتعالى – : ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ، ليتفقهوا فى الدين ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾[2] .

إن مفهوم الآية الكريمة يبين لنا أن النفير للدفاع عن الإسلام بالمعنى العام الذى ذكرته واجب ، وسواء كان النفير لقتال الأعداء أم لطلب العلم الذى

---

(١) سورة النور : الآية ٥٥ .

(٢) سورة التوبة : الآية ١٢٢ .

يتمكن به صاحبه من معرفة دينه والدفاع عنه برد الشبهات وتوضيح الحقائق العلمية التى يستدل بها على أحقية الإسلام ، فهذا كله من الدفاع المطلوب شرعا من المسلمين ليحموا به الإسلام من سطوة الأعداء .

يقول الشوكانى – رحمه الله – : « ذهب جماعة إلى أنه من بقية أحكام الجهاد لأنه – سبحانه – لما بالغ فى الأمر بالجهاد والانتداب إلى الغزو كان المسلمون إذا بعث رسول الله ﷺ سريته إلى الكفار ينفرون جميعا ، ويتركون المدينة خالية ، فأخبرهم الله – سبحانه – بأنه ما كان لهم ذلك أى ما صح لهم ولا استقام أن ينفروا جميعا ، بل ينفر من كل فرقة منهم طائفة من تلك الفرقة ، ويبقى من عدا هذه الطائفة النافرة .

ويكون الضمير فى قوله : ﴿ ليتفقهوا ﴾ عائدا إلى الفرقة الباقية ، والمعنى أن الطائفة من هذه الفرقة تخرج إلى الغزو ، ومن بقى من الفرقة يقفون لطلب العلم ، ويعلمون الغزاة إذا رجعوا إليهم من الغزو ، أو يذهبون فى طلبه إلى المكان الذى يجدون فيه من يتعلمون منه ليأخذوا عنه الفقه فى الدين ، وينذروا قومهم وقت رجوعهم إليهم .

وذهب آخرون إلى أن هذه الآية ليست من بقية أحكام الجهاد وهى حكم مستقل بنفسه فى مشروعية الخروج لطلب العلم والتفقه فى الدين . جعله الله – سبحانه – متصلا بما دل على إيجاب الخروج للجهاد .

فيكون السفر نوعين : الأول السفر للجهاد ، والثانى السفر لطلب العلم[1] .

وكلام الشوكانى هذا يدل على وجوب الخروج لطلب العلم والتفقه فى الدين لأن الله – عز وجل – ربطه بما يدل على وجوب الخروج للجهاد ، ومنطوق الآية الكريمة يؤيد هذا المعنى ويؤكده ، فإن الله – جل شأنه – يقول : ﴿ فلولا نفر ﴾ والنفير هو الخروج للقتال ، ثم علل ذلك النفير بقوله

---

(١) فتح القدير : ٢/٤١٦ .

– تعالى – : ﴿ ليتفقهوا فى الدين ﴾ وهذا صريح ، أن التفقه فى الدين نوع من الجهاد الواجب على المسلمين .

وأما ابن كثير – رحمه الله – فيفسر النفير فى حياة الرسول ﷺ بالخروج معه للغزو ، ويكون المعنى عندئذ ، ليتفقه الخارجون مع رسول الله بما ينزل عليه من الوحى ، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم بما كان من أمر العدو ، ثم يقول : « وبعده ﷺ تكون الطائفة النافرة من الحى إما للتفقه وإما للجهاد فإنه فرض كفاية على الأحياء »[1] .

ويقول ابن جرير الطبرى بعد أن ذكر عدة أقوال فى تفسير الآية : « إن أولى الأقوال فى ذلك بالصواب قول من قال : لتتفقه الطائفة النافرة بما تعاين من نصر الله أهل دينه وأصحاب رسوله على أهل عداوته والكفر به »[2] .

ويقول المرحوم – سيد قطب – : « والذى يستقيم عندنا فى تفسير الآية ، أن المؤمنين لا ينفرون كافة ، ولكن تنفر من كل فرقة منهم طائفة على التناوب بين من ينفرون ومن يبقون ، لتتفقه هذه الطائفة فى الدين بالنفير والخروج للجهاد والحركة بهذه العقيدة ، وتنذر الباقين من قومها إذا رجعت إليهم بما رأته وما فقهته من هذا الدين فى أثناء الجهاد والحركة » .

ثم يقول – رحمه الله – : « والوجه فى هذا الذى ذهبنا إليه – وله أصل من تأويل ابن عباس – رضى الله عنهما – ومن تفسير الحسن البصرى ، وهو اختيار ابن جرير وقول لابن كثير – أن هذا الدين منهج حركى لا يفقهه إلا من يتحرك به ، فالذين يخرجون للجهاد هم أولى الناس بفقهه بما يتكشف لهم من أسراره ومعانيه وبما يتجلى لهم من آياته وتطبيقاته العملية فى أثناء الحركة به .

أما الذين يقعدون فهم الذين يحتاجون لأن يتلقوا ممن تحركوا لأنهم لم يشاهدوا ما شاهد الذين خرجوا ، ولا فقهوا فقههم ، ولا وصلوا من أسرار هذا

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢/٤٠٠ .
(٢) تفسير الطبرى : ١١/٧٠ .

الدين إلى ما وصل إليه المتحركون ، وبخاصة إذا كان الخروج مع رسول الله ﷺ والخروج بصفة عامة أدنى إلى الفقه والتفقه »[1] .

وإذا كان هذا هو اختيار ابن جرير وسيد قطب – رحمهما الله – فإنى لا أرى ما يمنع من حملها على أن تكون حكما مستقلا لبيان مشروعية الخروج لطلب العلم – كما نقل الشوكانى عن جماعة من المفسرين – ويكون ذلك هو اختيارهما وهذا هو اختيارنا .

وتكون الآية الكريمة جاءت بهذا الأسلوب لبيان أن الخروج لطلب العلم نوع من الجهاد الواجب على المسلمين ، وتكون الآيات فى جملتها بيانا لأنواع الجهاد المختلفة .

ألم تر أن الآيتين السابقتين على هذه الآية وهما : ﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ، ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه .... ﴾ إلى قوله : ﴿ ... ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ﴾[2] .

والآية اللاحقة لها وهى ﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدوا فيكم غلظة ﴾[3] حاثات على قتال الأعداء ، مستنفرات للخروج للجهاد لإعلاء كلمة الله ؟ وأن الآية التى نتكلم عنها وهى ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾[4] سيقت بين آيات الجهاد لتحث على نوع آخر منه قد لا يفطن له الناس وكثيرا ما يقعدون عنه ظنا منهم أنه ليس من الجهاد ، وذلكم هو طلب العلم لرد الشبهات ودحض حجج المرتابين .

وليس الدفاع عن الإسلام بجدال الملحدين ، ورد شبه المبطلين أقل عند الله من الدفاع عنه وحمايته بالسيف ، والسلاح وقتال المشركين .

---

(١) فى ظلال القرآن : م٣ /١٧٣٤ .
(٢) سورة التوبة : الآيتان ١٢٠ ، ١٢١ .
(٣) سورة التوبة : الآية ١٢٣ .
(٤) سورة التوبة : الآية ١٢٢ .

يقول ابن القيم – رحمه الله – : « فالفروسية فروسيتان : فروسية العلم والبيان ، وفروسية الرمى والطعن .

ولما كان أصحاب النبى ﷺ أكمل الخلق فى الفروسيتين فتحوا القلوب بالحجة والبرهان ، والبلاد بالسيف والسنان » .

ثم قال : « وقد أمر الله – سبحانه وتعالى – رسوله ﷺ بجدال الكفار والمنافقين وجلاد أعدائه المشاقين والمحاربين ، فعلم الجدال والجلاد من أهم العلوم وأنفعها للعباد فى المعاش والمعاد ، ولا يعدل مداد العلماء إلا دم الشهداء »[1] .

وبهذا يتقرر أن الدفاع عن الإسلام فى جميع الجبهات التى يفتحها علينا أعداء الإسلام فريضة ، وأن الجهاد فى الإسلام لا يقتصر على حمل السلاح فقط ، بل يشمله ويشمل الجهاد باللسان وبالقلم على حد سواء .

وهكذا نغزو أعداءنا غزوا فكريا مضادا ، ونرد شبهات المنحرفين والمضللين ، وندحض حجج الملحدين والمفترين ، ونقاتل الذين يقفون فى وجه عقيدتنا ، ويحولون بيننا وبين نشر دعوتنا .

سؤال وجواب :

ويجدر بنا بعد أن انتهينا من الكلام عن واجبات الجنود أن نطرح بعض الأسئلة التى تثار كثيرا والتى سببت إشكالات نفسية ودينية عند كثير من الشباب لنرى فيها الرأى الصواب ، ونعرف فيها حكم الإسلام حتى نكون على بصيرة من أمرنا ، وتلك الأسئلة هى :

١ – هل لكل مسلم الحق فى إصدار الأوامر ؟

٢ – وهل كل أمر يصدر من شخص مسلم يجب أن يطاع وينفذ ؟

٣ – وما حكم من يرد بعض هذه الأوامر ولا يتقيد بها ؟

طرح على هذه الأسئلة بعض الشباب ، ورغبوا فى توضيح الأمر حتى

---

(١) رسالة الفروسية : ص ١٩ .

لا يلتبس على الناس فى هذه الأيام التى كثرت فيها الفرق ، وتشعبت فيها الآراء واجتهد فيها من ليس أهلا للاجتهاد ، وحتى ترتب على ذلك اضطرابات دينية ونفسية ، وأحدثت نوعا من الصراع الداخلى فى نفوس الشباب المتدينين الذين يحاولون الالتزام بأوامر الدين الحنيف .

وللإجابة عن هذه الأسئلة ينبغى أن نقدم بين يديها شيئا من الإيضاحات الهامة التى لابد منها فى هذا المقام ، إذ لابد أن نعرف أولا نوع هذه الأوامر ، هل هى شرعية مؤيدة بالنصوص ، أم هى اجتهادية صادرة عن اجتهاد ونظر من الآمر ، وليس فيها نص شرعى ؟

ولابد أن نعرف ثانيا هوية ذلك الآمر ، هل هو ممن تأهلوا لإصدار مثل هذه الأوامر ، أم هو شخص عادى قرأ بعض الكتب وتفقه بعض الفقه ، ترأس جماعة من الناس فظن أنه لذلك يجب أن يطاع ؟

بعد أن نعرف ذلك يمكننا الإجابة عن الأسئلة السابقة فأقول وبالله التوفيق :

الأوامر الشرعية المؤيدة بنصوص صريحة من الكتاب الكريم أو السنة المطهرمن حق كل مسلم أن يذكر بها ، ومن الواجب على المأمور أن يسمع ويطيع لأن طاعة هذه الأوامر طاعة لله - عز وجل - وذلك داخل فى باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والآمر به مثاب - إن شاء الله - والمأمور عليه أن ينفذ وإلا كان عاصيا أثيما ، وذلك تحقيق لقوله - تعالى - : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله ﴾[1] وعملا بقول الرسول ﷺ : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم »[2] يجب أن يتم الأمر والنهى وإلا أثم المسلمون جميعا .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١١٠ .

(٢) رواه البزار والطبرانى فى الأوسط .

أما إذا كانت الأوامر مبنية على اجتهاد شخصي ، ليس له أصل فى الدين ، ولا يعود إلى شيء من أصوله فلا يجب على المسلم تنفيذ شيء من هذه الأوامر مهما كان الآمر رئيسا أو أبا أو شيخا أو غير ذلك ، فإذا كان الأمر بمعصية ظاهرة فإنه يحرم على المسلم الطاعة فى ذلك ، لأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، قال رسول الله ﷺ : « لا طاعة فى معصية الله ، إنما الطاعة فى المعروف »(١) .

وهنا موضوع لابد من الوقوف أمامه ، ذلكم هو الأمر الذى يحقق مصلحة للمسلمين وإن لم يرد به نص ، فذلك يجب على من يأمر به أن يبين نوع المصلحة وأهميتها وصلتها بالدين ومدى ما تحققه من النفع لجماعة المسلمين .

وعلى المأمور أن يتأكد من تحقيق المصلحة قبل أن ينفذ ، ولا يكتفى بمجرد كون الأمر صادرا إليه من إنسان يثق فيه ، بل لابد من أن يظهر لها وجه المصلحة ، فإن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – لما أمر سعد بن أبى وقاص بعدم تقسيم سواد العراق توقف المسلمون ، ولم ينفذوا الأمر مع كونه صادرا ممن وثقوا فيه ، وبايعوه أميرا عليهم بل على الأمة الإسلامية كلها .

فلما ناقشهم عمر ، وبين لهم ما فيه من مصلحة محققة للأمة وللمسلمين وتبين لهم الحق خضعوا ونفذوا الأمر بغير تردد .

فإذا كان تنفيذ الأمر يحتمل نوعا من الخسائر وإن لم يتحقق ذلك فلابد من الموازنة بين ما يحققه من المصلحة وما يترتب عليه من الخسائر ، فإذا ترجحت المصلحة نفذ وإلا فلا .

وإنما قلنا ذلك لأن أمثال هذه الأوامر داخل فى باب الاجتهاد وليس الاجتهاد متروكا لهوى الناس مهما كانت مكانتهم ومنزلتهم ، وليس لكل أحد الحق فى الاجتهاد ، ذلك لأن للاجتهاد شروطا لابد أن تتحقق فيمن يريد الاجتهاد ، ومن أهم هذه الشروط ما يأتى :

---

(١) رواه مسلم .

١ – العلم بكتاب الله – عز وجل – .

٢ – العلم بسنة رسول الله ﷺ .

بمعنى معرفة الناسخ والمنسوخ والمطلق والمقيد والمحكم والمتشابه والعام والخاص من الكتاب والسنة .

٣ – العلم بلغة العرب وأوجه استعمالها والأساليب التى كان العرب يستعملونها على اختلافها .

٤ – العدالة : ونقصد بها عدم تورط المجتهد فى الفسق بالعمل أو الإقرار بما يقدح فى عدالته وتقواه .

٥ – فقه النفس[١] : ونعنى به الورع والتقوى ، وإدراك الأمور بتصور إسلامى صحيح يمكنه من الحكم عليها .

فإذا تحققت هذه الشروط فى شخص اعتبر مجتهدا ، وكان من حقه أن ينظر فى أحوال المسلمين ، ويأمرهم بما يحقق المصلحة وإن لم يكن فيها نص بعينها ، بل المطلوب هنا أن يكون المأمور به داخلا تحت نصوص عامة جاءت على لسان الشارع ﷺ .

وفى هذه الحال يكون الالتزام بالأوامر التى تحقق المصلحة العامة بحسب طاقة كل مسلم وقدرته ، لأن القيام بها وتنفيذها ليس من الواجبات العينية بل هو من التعاون على البر والتقوى ﴿ لا يكلف الله نفسها إلا وسعها ﴾[٢] .

فإذا لم يكن هناك من يستطيع القيام بها إلا شخص واحد من المسلمين تعين عليه القيام بها ، وإلا ضاعت المصلحة ، وفى تضييعها ما فيه من المفاسد التى تلحق جماعة المسلمين .

ومن هذا العرض السريع نتبين الأمور الآتية :

١ – ليس لكل فرد من المسلمين أن يصدر أوامر إليهم لينفذوها إلا أن تكون

(١) أخذنا هذه الشروط الخمسة بغير تعليق من كتاب البرهان للجوينى ١٣٣١/٢ ، ١٣٣٢ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٨٦ .

مؤيدة بالنصوص الشرعية من الكتاب والسنة على أن تكون هذه النصوص صريحة فيما يأمر به .

٢ - إذا كان النص يحتمل التأويل ، بمعنى أنه يحتمل أكثر من معنى أو لم يكن فى المسألة نص بعينه ، ولكنها داخلة تحت نصوص عامة يجب أن يكون الآمر فى تلك الحالات من العلماء المعتبرين الموصوفين بالورع والتقوى المعروفين بتمسكهم بالكتاب المجيد والسنة المطهرة والسائرين على نهج السلف الصالح - رضوان الله عليهم أجمعين - .

٣ - على المسلم فى هاتين الحالتين السمع والطاعة وتنفيذ ما يؤمر به من الأوامر التى تحقق المصلحة للمسلمين .

٤ - إذا كانت الأوامر صادرة عن شخص لم تتحقق فيه شروط الاجتهاد وليس فيها نص شرعى صريح ، فلا يجب على المسلمين تنفيذها .

أما إذا كانت مخالفة لنص شرعى ، وظهرت فيها المعصية فيحرم على المسلمين تنفيذها بل يجب عليهم ردها والتنبيه على ما فيها من المخالفة .

٥ - الحكم على من يؤخذ قوله أو يرد مرجعه إلى جماعة العلماء العاملين بالكتاب والسنة لا إلى جمهرة المسلمين مهما كان عددهم .

وليسوا من المجتهدين أولئك الذين يحملون الأدلة مالا تطيق لفهم فهموه بعقولهم غير موافق لروح الشرع بسبب عدم جمع أدلة الموضوع الذى يبحثونه والتحقق منها .

وليسوا من المجتهدين كذلك أولئك الذين يلوون أعناق الأدلة ليأ يخالف نصوصا شرعية لمجرد تحقيق مصالح ولو زعموا أنها لجماعة المسلمين .

ولا يفهم من كلامنا هذا أننا نريد تعطيل هذا الجهد الكبير لعلماء المسلمين أو نغلق بابه فى وجوههم ، كلا ، ولكننا نريد أن يكون المجتهد أهلا لهذا العمل الإسلامى الجليل حتى يثق الناس فيما يقول ، ويأخذوا عنه وهم مطمئنون .

ونحن بذلك نفتح باب الاجتهاد على مصراعيه أمام كل ذى أهلية له بحيث لا يغلق إلى يوم الدين - إن شاء الله تعالى - .